

الصورة الماسخة في ميلودراما الشعر المعاصر

د . خشير عيسى

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب-عين تموشنت

الشعر المعاصر والميلودراما :

إنّ بداية التأسيس للشعر العربي المعاصر هي بداية حدثية، إذ انبرى الشعراء المعاصرون على تكييف ذاتهم أولاً مع العصر ثم قراءتهم ثانياً للثقافة الأوروبية التي كانت مهيمنة لتتحول القصيدة المعاصرة عندهم إلى صورة على هذا التكييف الحداثي، فمسألة الأجناس الأدبية في الأدب العربي الحديث على نحو ما يشير محمد بنيس تعود إلى « بدايات اللحظة التي تم فيها تداخل النص الأدبي العربي، في القرن التاسع عشر، مع النصوص الأدبية الأوروبية، من الأجناس المختلفة، وخاصة منها القصة والرواية والمسرح، (الشعري منه والنثري)، ويتفاعل أيضاً مع ترجمات أعمال أدبية أوروبية »¹، فتداخل النصوص وتفاعلها ساهم في الارتقاء بالشعر العربي الحديث، ليكون معبراً عن واقعه خير تعبير وبأفضل الوسائل الفنية .

وقد استعان الشعراء المعاصرون بأدوات تعبيرية لم تكن متاحة من قبل للشعراء، بعضها يعود إلى طبيعة القصيدة العربية وقيودها وبعضها يعود إلى التغيرات والتأثيرات التي واجهت الشاعر المعاصر « الميلودراما مسرحية شعبية ذات الحكمة الجادة، التي تعتمد على المبالغة والإثارة، وتخللها بعض المشاهد الفكاهية، وتصحبها ألحان الموسيقى التصويرية »²، وهي من الفنون التي تهتم بالشعب ومشاكله، لذلك لا نجد غرابة إن توافقت مع الشعر المعاصر في أهدافه وغاياته، وتمكّن الشاعر المعاصر أن يطوّر ويخضع اللغة الفنية إلى هذا الفن المسرحي، بأصوات تتراءى للقارئ ويتحدث الشاعر خلف نصه ويشارك معه أصواتاً أخرى فيكون النص الشعري الميلودرامي نصاً تفاعلياً لمجموعة من الأصوات و تأتي الميلودراما في الشعر المعاصر كمحاولة لمشاركة الناس في تغيير حياتهم نحو الأرفع والأفنع، وحين كان الشعر في الحقيقة هو محاولة للارتباط بالناس، وكبار الشعراء المعاصرين ممن شغلوا الناس بشعرهم ارتبطوا بالشعب ولم يكونوا كشعراء السلف نستطيع أن نقول بأنّ الشعب أو الجمهور هو الذي ارتبط بهم، اعجاباً، في حين شعراء الشعر المعاصر علاقتهم وارتباطهم بالشعب هي أن يكونوا صوته وصرخته وتحديه ورفضه لما كان يعيشه من ظلم وحيث وعبودية، فجاءت قصائدهم صورة لهذه الحياة الشعبية، فعند استقراء دواوين بعض هؤلاء الشعراء على نحو : " بدر شاكر السياب " فنجد ذلك الغريب في المدينة وسط عالم لا شعر فيه، وحديثه عن المدينة هو استحضار للريف وصراعه مع المدينة هو صراع مع الآخر، فهي غربة روحية حادة، أما البياتي فهو حزين يعاني غربة المسافر ويرفض العودة إلى الماضي كما كان ويعلن انفصاله عن روح التفكير العربي القديم، وهو يحاول أن يغيّر العالم لا ليقع في شركه بل ليتخطاه إلى المستقبل وثورته ترتبط بكل الثورات التي عرفها الإنسان عبر العصور، فالشاعر المعاصر الذي يستعين بالميلودراما أو بمسرحية الشعر يجد نفسه بين صوتين أو أكثر، صوت الشاعر وصوت الجماعة أو صوت الآخر المقصود .

الشعر المعاصر والصورة الماسخة :

الصورة الماسخة هي الصورة الكاريكاتورية توجد في ظروف قاهرة يحاول الفنان أو الرسّام أو الشاعر بالكلمة أن يقهر الواقع بالسخرية اللاذعة، والكاريكاتير تسمية تطلق على التشكيل الذي يحمل مضموناً ساخراً أو ناقداً أو يحتوي على مفارقة كوميدية منفذ بخطوط مبالغ فيها وهي مأخوذة من الكلمة الإيطالية Caricatura التي تعني المبالغة أو التحميل³ ، فالرسم شقيق

الشعر كلاهما يؤديان رسالة فيها من الوجد ومن الفرح، للتعبير عن حالات خاصة ؛ لذلك لا نكاد نفرق بين رسالة درويش الشعرية ورسالة ناجي العليّ وإنّ الشعر هو رسم بالكلمات، فحين يكتب محمود درويش عن ناجي العليّ لأنّه كان يدرك بأنّ ناجي العلي لم يكن يرسم وإنّما كان ينظم شعرا بقلم الرصاص كذلك، وحين يكتب محمود درويش عن هذا الكاريكاتوري العربي الرائع والكبير، كان يعرف ما معنى المسخ والسخرية في كشف الحقيقة، فالصورة الماسخة ليست بنت الرسام الكاريكاتوري فقط وإنما تستطيع أن كذلك أن تكون بنت الكلمة وتستوعبها القصيدة الشعرية، وقليل هم أولئك الشعراء الذين جمعوا بين الميلودراما كجنس فني في الشعر وبين الصورة الكاريكاتورية التي تقولها هذه الميلودراما، فقد صرّح صلاح عبد الصبور في ديوانه بهذا المعنى حين قال: « لو كان لي أن أخرج هذه المسرحية - وهذا فرضا سأعود إليه فيما بعد - لقدمتها من " الفارس " إذ أنني أريد للمتفرج أن يخشى عامل التذاكر ضاحكا، وأن يشفق على الراكب ضاحكا، وأن يحب الراوي ضاحكا، ويزدر ضاحكا كذلك، فلست أريد في هذه المسرحية أن أقدم أشخاصا بقاماتهم الصحيحة السليمة، ولكنني أريد أن أقدم نماذج، وهي ليست نماذج من الناس، بقدر هي نماذج من البشرية واتخاذ النموذج أساسا للعمل المسرحي يعني درجة التجريد، تماما مثل الفكاهة أو النكتة حين تجعل محورها نمودجا يواجه نمودجا آخر، فتكشف بهذا التجريد لب التناقض»⁴، فتوجه الشاعر إلى الشعر المسرحي الميلودرامي هو توجه من ينقد الواقع المزري الذي يرفضه الشاعر أو يريد تغييره ؛ ولأنّ « الشاعر يضع نصب عينيه دائما الظروف التي تحيط بالحياة، إذ إنه لا يمكن أن يجرب الحياة دون أن يضطر إلى التفكير في المشاكل الإنسانية الجوهرية، وما النظم السياسية والاجتماعية إلا محاولات لحل هذه المشاكل حتى نستطيع أن نختار الحياة، لذلك نجد أنّ الشاعر مجبر على أن يعيد النظر في هذه الحلول، وحينئذ قد يتبين له أنّها تتحقق فيها إلى حد ما الشروط الجوهرية للوجود الإنساني، وقد يتبين له العكس أيضا، وبهذا المعنى لا شك أنّ الشعر نقد للحياة»⁵، فطبيعة الشعر عدم الموافقة والتآلف مع ما هو كائن وحاصل وذلك ما دأب عليه الشعراء المعاصرون، فهم على موقف التحريض والاقترام فأدبهم أدب التمرد والرفض وحين كان « الأدب عالم مغاير وسيلته الكلمات وبما أنّ الأدب احتجاج واقترح، فهو تحريض من الدرجة القصوى للقارئ، تحريض على رفض الواقع وتحريض على اعتناق الاقتراح بواقع مغاير يوفر مستقبلا أفضل ولكي ينجح التحريض ينبغي أن يكون النص الأدبي مركزا أتم التركيز - أي مشحونا بالمعنى والعاطفة إلى أقصى حد ممكن . وينفرد الشعر عن النثر بأنّ هذا التركيز والشحن إنّما يكون بالصورة المخيلة»⁶،

والبياتي أجاد رسم النماذج البشرية المريضة سواء من جهة المحتوى أو الفنية، وهو رسم أشبه بالرسم الكاريكاتوري ولكنه عند البياتي يسخر من البورجوازيين الصغار وشعراء طبقتهم الذين يرفعون عقيرتهم الجوفاء بغناء كاذب بدعوي التفاؤل والحماس ..، لأنّ البياتي ليس من طبقة هؤلاء ولا من عالمهم، وهو نائر ضدهم ويسخر منهم ومن وثورتهم المزعومة⁷.

مصادر الصورة الماسخة في الشعر الميلودرامي المعاصر :

الصورة الشعرية من مكونات وصميم الشعر، ولها عناصرها الفنية التي تكوّنها وهي بنت خيال الشاعر وعاطفته وحسه المتدفق أمّا الصورة الماسخة في الشعر فهي صورة تتحرّك داخل وجدان وعقل الشاعر لتنتقل إلى القارئ وتحتوي على وعي والتزام وهي بنت الشاعر الإنسان الذي يعيش ويلاحظ، فيكون الشاعر شاهدا وصوتا تتزاحم معه مجموعة من الأصوات التي تشكل مسرحية الشعر الدرامي، والظلال الفنية لهذه الصورة تنكشف برؤية واستشراف الشاعر في إعادة صياغة اللغة والتاريخ والثقافة،

فتعدو الصورة لديه واقعا تلامسه الحياة الجمعية المترعة بالبؤس والحرمان والظلم فتعدّل من واقعها بالضحك على الواقع المرّ، فتكون الصورة الماسخة في ميلودراما الشعر المعاصر كما سماها محي الدين صبحي تمثل شعر الحقيقة لا شعر التزييق⁸.

نماذج من الصور الماسخة في ميلودراما الشعر المعاصر :

وصف الشاعر المعاصر حالته النفسية، وصوّر صراعه مع قوى الشرّ، وعبر عن واقع المحرومين، ممّن كانوا صورا لمسرحه الشعري، وتألّم معهم، وارتمى في أحزانهم، وعاش بؤسهم وقهرهم الاجتماعي والسياسي والثقافي، وكافح معهم بؤر الفقر والعوز، وسخر ممّن سخروا منه، واعتلى صهوة فرسه ليحارب تلك الطواحين التي عاثت فسادا وإيلاما في رغيف خبزهم أو في بحثهم عن حريتهم أو في التعبير عن إنسانيتهم ونلمس ذلك في " خطب الدكتاتور الموزونة " التي رفض درويش كما يقولون بوضعها في دواوينه ولم يرغب في أن تكون شعرا كما أنه لم يقل بأنّها نثر، وقد وصفها علي عبيدات بأنّها فيها من الطابع التقريري الخطابي واللمسات الكاريكاتورية التي تشبه مضامين مظفر النواب وأحمد مطر وهي تبتعد عن أسلوبية درويش المبطنة البعيدة عن المباشرة والمغرقة في الترميز، ولقد أجاب درويش عن سؤال لماذا جعل هذه الخطب شعرا ؟ فقال : حين باشرت خطاب الدكتاتور الأول " خطاب الجلوس " كنت أنوي كتابته نثرا، ولكن امتلائي بالسخرية جرّني إلى الإيقاع، ورغيتي في الضحك جرّني إلى القافية⁹ وحين نقرأ هذه الخطب إذا جاز لنا تسميتها بالشعر لأنّ فيها من الموسيقى ومن الإيقاع فإنّنا لا نجد صوت الشاعر وإنّما صوت الديكتاتور وهذا من المفارقة اللفظية التي تعبر عن سخرية فظيعة يجتزمها الكثير من النّاس.

1- التهكم من وضع ما :

الشاعر العربي المعاصر لا ينتمي إلى حدود فاصلة ولا يركن إلى وطنية ضيّقة ولا يعبأ بالشعارات الجوفاء، فهو مشدود إلى انتماء يؤمن به وتعلّمه وثقّفه ورضعه وكبّر معه، فتجده يمارسه في أشعاره وينشده ؛ ليكون رسالته وقضيته التي آمن بها ومن هنا نجد الشاعر " معين بسيسو " في رسالة يوجهها إلى محمود درويش حين خرج هذا الأخير من الأرض المحتلة نحو وطن عربي يقول فيها ساخرا، وقد نظم " معين بسيسو " قصيدة " الخروج " بعد مغادرة الشاعر محمود درويش فلسطين المحتلة ليقيم في الأراضي العربية المستقلة، حين كان محمود درويش في فلسطين كان شاعرا مقاوما للاحتلال الصهيوني فإذا غادر فلسطين وانضم إلى المقاومة من الخارج ماذا سيفعل ؟ سيكتب ما يطلب منه ؟

فها هو " معين بسيسو " يروي لصديقه قصة الشعر مع القوانين والأنظمة والأجهزة في الوطن العربي¹⁰ :

قالوا : القُدُس / وَكُنْبَنَا يَا مَحْمُودُ عَنِ الْقُدُسِ / وَزَهْرَةُ عُبَادِ الشَّمْسِ / قالوا : يَا / كُنْبَنَا عَنِ يَا . . يَا . . يَا / والآنَ يَقُولُونَ لَنَا : غَزَا / مَاذَا بَعْدُ ؟ كَسَرَ رُجَا جَ نَوَافِدِنَا الرَّعْدُ .

لقد تقلصت مساحة الوطن عند الشاعر معين بسيسو في تهكم صارخ وفي سخرية لاذعة، فها هو الوطن يتمزق في صورة حزينة مؤلمة ومضحكة في آن واحد .

2- تجسيم العيوب :

ثار الشعراء المعاصرون على جشع البورجوازيين وتهكموا من نهمهم وبخلهم وتخليهم عن الفقراء والمعوزين، فتندر بهم الشعراء وحولهم إلى سخرية وأضحكة ومن النماذج التي نعتز عليها في الشعر المعاصر، في قصيدة المخبر نجد ما يسميه الشاعر عبد الوهاب البياتي " بالسيد البرميل " يقول فيها¹¹ :

قفاه بطنه، وبطنه قفاه : ذرب اللسان / يحفظ شعر المتنبى، ويقول الشعر أحيانا / بلا أوزان / لكنّه يخطئ في الإملاء والإعراب / يلقط في عيونه الحروف والخطوط والأرقام .

ويقول في موضع آخر :

أُخْرِجَ لِلْجُمْهُورِ

لِسَانَهُ، وَبَخَلْتُ عَيْنَاهُ فِي السُّطُورِ

وَاعْتَدَلُ الْخَطِيبُ فِي وَقْفَتِهِ وَمَالَ نَحْوُ الثُّورِ

وَارْتَفَعَتْ يَدَاهُ كَالْهَرَاوَةِ السُّودَاءِ

فَفَوْقَ رُؤُوسِ الْجَالِسِينَ الْعُورِ

وَمَالَ نَحْوُ الثُّورِ

ثَانِيَةً وَهَرَّ فِي اسْتِعْلَاءٍ .

3- عنصر التندر :

وتوظيف الميلودراما التي تنخر بالصورة الماسخة له ما يبرره اجتماعيا وثقافيا وسياسيا لدى بعض الشعراء المعاصرين، فالمهزلة التاريخية التي مازالت تنخر جسد الأمة بأحداثها وصراعاها الطائفي، يوظفها البياتي لا ليعيد رسم خيوطها المتشابكة أو احياءها لتمجيدها، بل يوظفها ليحولها إلى هزيمة في صورة كاريكاتورية لهؤلاء الذين يعيشون تنظيما أخلاقيا لا أخلاقي وهذا ما نجده في حديثه في قصيدة البورجوازي الصغير¹² :

رَأَيْتُهُ يَبْكِي عَلَى الْحُسَيْنِ / وَيَطْعُنُ الْحُسَيْنَ / فِي كُرْسِيِّ طَعْنَةَ الْجَبَانِ فِي الْعَيْنَيْنِ / يُقْبَلُ الْيَدَ الَّذِي تَصْنَعُهُ لِقَاءَ لِيرْتَيْنِ .

حاولنا من خلال هذه السطور أن نستجلي بعض مظاهر التجديد في الشعر العربي المعاصر، الذي اتخذ من الفنون والأجناس الأدبية الأخرى مجالا ليعبر عن أفقه الرّحب في عصر اتّسم بالكثير من التعقيدات، ولعلّ وجود الميلودراما الشعرية في الشعر المعاصر تمثل عودة إلى طبيعتها الفنية الأصيلة ؛ لأنّ المسرح في بادئ أمره صيغ شعرا، وهذا ما عرفه المسرح اللاتيني والثقافة الأوروبية في عصورها الوسطى، التي تشكلت وحدتها الفنية من الشعر، فكانت الميلودراما فنا أصيلا يمزج بين السخرية والضحك والآلام الدفينة في أغوار النفس الانسانية ولأنّها كذلك فن ارتبط بما عرفته أوربا من ثورات وتخلخل في القيم والمبادئ، وإنشاد الكرامة الإنسانية، وهذا ما كان الإنسان العربي بأشدّ الحاجة إليه، إذ ويلات الاستعمار والإقطاع في الأوطان العربية، والظلم والقهر الاجتماعي والسياسي، كلها ساعد على تقويض الشاعر المعاصر لطبيعة القصيدة العربية والتمكين لها أن تكون صورة حيّة ومرآة حقيقية لوجوده، فرسمها بهذه الصورة الكالحة الساخرة والمعبرة ولأنّ السخرية هي الصورة المبطنة للبكاء على حد تعبير درويش .

الهوامش:

1. بنيس محمد : الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها مساءلة الحداثة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ، 2014م ، ص9 .
- * ميلودراما مشتقة من كلمتين إغريقيتين ، هما melos التي تعني اللحن أو الغناء وكلمة drama بمعناها المعروف لنا فهي تمثل إذن المسرحية الغنائية
2. محمد حمدي إبراهيم : رحلة الدراما عبر العصور من القرن الخامس . ق . م . حتى القرن العشرين ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2007م ، ص 247 .
3. ينظر : علي منعم قضاة : فن الكاريكاتير في الصحافة البحرينية اليومية ، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية ، العدد 8 ، السنة 2012م ، ص 153 .
4. صلاح عبد الصبور : ديوان صلاح عبد الصبور ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1972م ، ص 685 .
5. محمد زكي العشماوي : الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، د.ر.ط ، 1983م ، ص 151
6. محي الدين صبحي : شعر الحقيقة - دراسة في انتاج معين بسيسو - دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1982م ، ص 15 .
7. ينظر : عبد العزيز شرف : الميلودراما في شعر البياتي ، مجلة المعرفة ، مجلة ثقافية شهرية ، دمشق ، سورية ، العدد 107 ، كانون الثاني ، يناير ، 1971م ، ص 65 .
8. ينظر : محي الدين صبحي : شعر الحقيقة دراسة في انتاج معين بسيسو ، ص 79 .
9. ينظر : محمود درويش وسميح القاسم : الرسائل ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، د.ر.ط ، 1991م ، ص 92 .
10. ينظر : محي الدين صبحي : شعر الحقيقة دراسة في انتاج معين بسيسو ، ص 74 .
11. ينظر : عبد العزيز شرف : الميلودراما في شعر البياتي ، ص 65 .
12. ينظر : المرجع نفسه ، ص 64 .